التوبة في منهج القرآن الكريم

تأليف

أ. د. سليمان بن صالح القرعاوي

أستاذ الدراسات الإسلامية

جامعة الملك فيصل – الأحساء

المملكة العربية السعودية

وقف لله تعالى

مع الدعاء لوالد المؤلف بالمغفرة والرحمة.

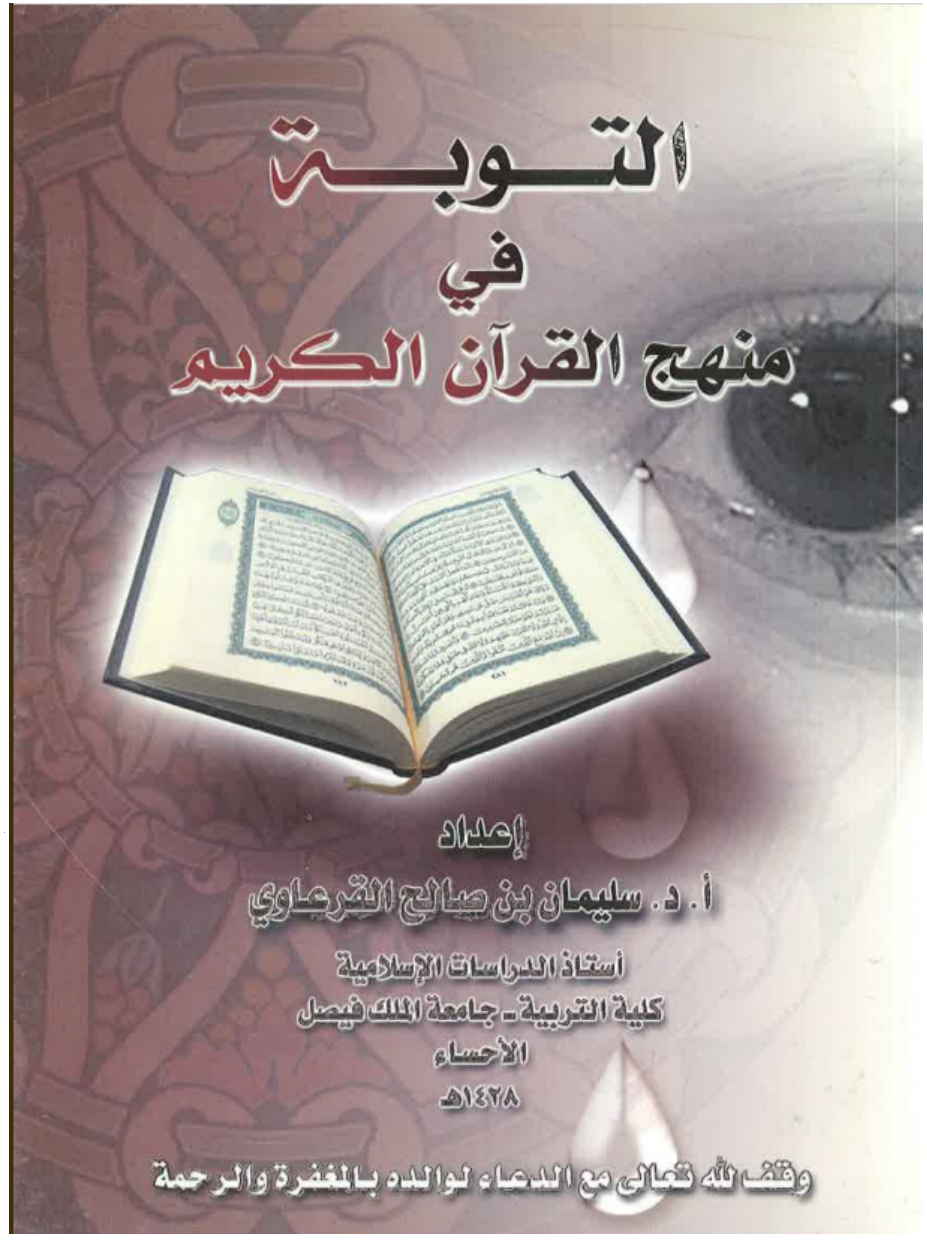

ح سليمان بن صالح القرعاوي : ١٤٢٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر
القرعاوي ، سليمان بن صالح
التوبة في منهج القرآن الكريم / سليمان بن صالح القرعاوي -
الاحساء، ١٤٢٨هـ
١٠٧ ص : ١٤,٥ × ١٩ سم
ردمك : ٦-٩٨٩-٥٢-٩٩٦٠

١- الوعظ والارشاد ٢- التوبة أ.العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٢٨/١٥٨

رقم الإيداع : ١٤٢٨/١٥٨
ردمك : ٦-٩٨٩-٥٦-٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

مطابع الشاطئ الحديثة بالدمام
هاتف : ٠٣ ٨٤٢٦٢٧٢ - فاكس : ٠٣ ٨٤١٣١٥٢

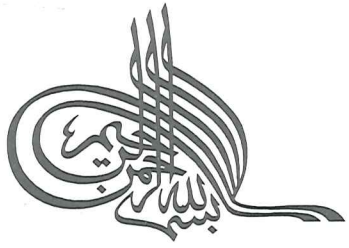

مقدمة

الحمد لله رب العالمين القائل في محكم كتابه ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾[1] ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين الذي بعث بالشريعة السمحة التي أساسها اليسر بالخلق ورفع الحرج عنهم ، وغايتها تحقيق مصالحهم والعدل بينهم ، وعلى آله وصحبه الذين خلفوه في حراسة شريعته ، وهداية أمته ، فكانوا مشاعل بددت ظلمات الجهالة ، فأرشدوا البشرية ، وقرروا الحق للناس قاطبة ، وبعد :

فقد أشار عليّ بعض الإخوة الفضلاء الذين تربطني بهم علاقة وطيدة بنشر هذا البحث ؛ ليخرج إلى النور، ليستفيد منه كل من أراد الإطلاع على منهج التوبة في القرآن الكريم ، وسبق أن نشر هذا الموضوع في مجلة البحوث الإسلامية –وهي مجلة دورية تصدر عن رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء بالرياض ، المملكة

(١) سورة تبارك الآيتان (١-٢) .

العربية السعودية- ، في عددها الواحد والخمسين ، لعام ١٤١٨هـ.

إن دراسة كتاب الله تعالى والعيش في رحابه نعمة لأولي الألباب الذين يعرفون أن الدنيا دار ممر وليس دار مقر ، وأن هذا الإنسان استخلفه الله على أرضه ليتخذ من شريعته منهجاً ودليلاً يرشده إذا ضل ، ويعلمه إذا جهل ، ويأخذ بيده في مزالق الطرق ، ومتاهات الفيافي والقفار .

ولكن الإنسان عرضة لوسوسة الشيطان ، ومجالاً لرمي سهامه ، مصداقاً لقوله الذي قصه رب العزة : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [١] .

فإذا استجاب الإنسان لهذه الغواية ، واتبع سبيل الضلال ألقى به الشيطان في بحر تلاطم أمواجه ، والظلام يحيط به من كل جانب عندها يحس بالندم ، ويأخذ الله بمجامع قلبه فيتخبط يمنة ويسرة ، ويأخذ في الإقدام والإحجام ، ويقرر الفرار إلى ربه

(١) سورة الحجر الآيات ٣٩-٤٢.

والهجرة إلى مولاه ، لقوله تعالى :﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [١] فيضيء قلبه وتهدأ نفسه ويتذكر قوله تعالى : ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [٢] فيسهل الله له طريق التوبة ، يرشده إليها، عندها يسلك طريق الصلاح والخير فيعود إلى ربه نادماً ، ويتقدم إليه تائباً . ويتحقق فيه وفي غيره من التائبين قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ [٣] ولكن متى تكون التوبة صادقة ؟ ومتى يتقبل الله توبة العبد ؟ .

إن الله تعالى يقول في محكم كتابه : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [٤] .

فهل تكون التوبة صادقة لله ، وصاحبها لم يزل في اتباع الهوى هل تكون التوبة صادقة ، وحالة العبد متأرجحة بين الضلال

(١) سورة الذاريات آية رقم ٥٠.

(٢) سورة الزمر آية رقم ٥٣.

(٣) سورة التوبة آية رقم ١١٨ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ٢٧ .

والهدى ، ونفسيته تواقة إلى الإيمان ؟ ، ومشتاقة إلى فعل المنكرات ؟ كما ذكر الله عن ذلك بقوله : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [١] هل تكون التوبة صادقة ونصوحة ، وقد ولى شبابه، وذهبت أيامه وضاعت قوته ، وأصبح شيخاً فانياً ، لا حول له ولا طول ، وليست عنده رغبة يرغبها أو شهوة يريدها ؟

إن التوبة تكون صادقة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ [٢]

وإذا كان الأمر كذلك فمتى يتقبل الله توبة عبده ؟ وما الدليل على قبولها ؟ وما الشروط التي يجب أن يلزم العبد بها نفسه حتى يكون من هؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [٣] .

إن هذا الكتاب (التوبة في منهج القرآن الكريم) يُعد باكورة

(١) سورة النساء آية رقم ١٤٣ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٧ .

(٣) سورة الشورى آية رقم ٢٥ .

لعمل متواصل – بمشيئة الله – وثمرة صادقة لمعايشتي كتاب الله تعالى وسنة نبينا ﷺ ، ولقد كتب على هذا النمط ليلائم طبيعة العصر – عصر الأزرار الفاتكة ، والتقنية الباهرة وكل ما يدعو إلى الدهشة ويصيب الرؤوس بالدوار ، وهدفه في النهاية عودة هؤلاء الشاردين الذين احتضنتهم مدنية الغرب بزيها المغري ، وبريقها الخادع . والرجوع به مرة أخرى إلى رحاب الله تعالى حيث صفاء الإيمان ، ومرتبة الإحسان .

وعناصر هذا الكتاب لا تخرج عن هذا النطاق وهي :

التوبة واقترانها بالإيمان .

التوبة واقترانها بالصلاة والزكاة .

التوبة والعمل الصالح .

أسال الله تبارك وتعالى أن يكون بداية خير وقنطرة إلى التوبة النصوح ، عندها يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

التوبة عند علماء اللغة :

يقال : تاب إلى الله توباً ، ومتاباً ، وتابة : رجع على المعصية ، وهو تائب ، وتاب الله عليه ، وهو تواب على عباده ، واستتابه :

سأله أن يتوب[١] .

وقال ابن منظور :

التوبة : الرجوع عن الذنب ، وتاب إلى الله يتوب توباً ، وتوبة ومتاباً : أنا ب ورجع عن المعصية إلى الطاعة ، وتاب الله عليه : وفقه لها ، ورجل تواب : تائب إلى الله ، والله تواب : يتوب على عبده[٢] وفي الحديث : (الندم توبة)[٣] .

ويكاد يكون المعنى الذي تناوله علماء اللغة عن التوبة متقارباً لفظاً ومعنى فهي الرجوع والإنابة إلى الله تعالى .

التوبة في الاصطلاح :

قال ابن قدامة : (إن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصي حائلاً بين

(١) راجع بصائر ذوي التمييز ٢/ ٣٠٤ .

(٢) راجع لسان العرب ، مادة (توب) .

(٣) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ، ١/ ٤٢٣ وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٤٧٦ .

الإنسان وبين محبوبه)[١] . وما يقوله ابن قدامة يتفق مع حديث رسول الله ﷺ (الندم توبة) هذا الندم يتولد عنه العزم ؛ للإقلاع عن المعصية . ويقول ابن عاشور في تفسيره : (لما كانت التوبة رجوعاً من التائب إلى الطاعة ، ونبذاً للعصيان ، وكان قبولها رجوعاً من المتوب إليه إلى الرضى ، وحسن المعاملة ، وصف بذلك رجوع العاصي عن العصيان ورجوع المعصي عن العقاب ، فقالوا : تاب فلان لفلان فتاب عليه ؛ لأنهم ضمنوا الثاني معنى عطف رضي ، فاختلاف مفادي هذا الفعل باختلاف الحرف الذي يتعدى به ، وكان أصله مبنياً على المشاكلة)[٢] .

ويرى ابن عاشور : أن التوبة تتركب من علم ، وحال ، وعمل . فالعلم : هو معرفة الذنب ، والحال : هو تألم النفس من ذلك الضرر ويسمى ندماً ، والعمل : هو الترك للإثم ، وتداركه ، وهو المقصود من التوبة . وأما الندم فهو الباعث على العمل . كما

(١) المغني لابن قدامة ١٤/ ١٩٢ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ١/ ٤٣٨.

جاء في الحديث (الندم توبة) [١] .

فإذا أردنا أن نتعرف على ما يقوله صاحب التعريفات بشأن التوبة نراه يقسمها إلى قسمين : التوبة فقط ، والتوبة النصوح . ويعرف الأولى : بالرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب ثم القيام بكل حقوق الرب [٢] .

أما عن التوبة النصوح ، فيرى أنها : توثيق العزم على ألا يعود لمثله . قال ابن عباس ﷺ : التوبة النصوح : الندم بالقلب ، والاستغفار باللسان ، والإقلاع بالبدن ، والإصرار على أن لا يعود.

وقيل : التوبة في اللغة : الرجوع عن الذنب ، وكذلك التوب قال الله تعالى : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ [٣] .

وقيل / التوب : جمع توبة ، والتوبة في الشرع : الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى الممدوحة ، وهي واجبة على الفور عند عامة

(١) راجع المرجع السابق .

(٢) التعريفات للجرجاني ص٨٣.

(٣) سورة غافر آية رقم ٣ .

العلماء ، أما الوجوب فلقوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [١] .

وأما الفورية ، فلما في تأخيرها من الإصرار المحرم ، والإثابة : قريبة من التوبة لغةً وشرعاً .

وقيل : التوبة النصوح : أن لا يبقى على عمله أثراً من المعصية سراً وجهراً .

وقيل : هي التي تورث صاحبها الفلاح عاجلاً وآجلاً وقيل : التوبة : الاعتراف والندم والإقلاع [٢] .

ولا شك أن صاحب التعريفات قد أضاف إلى ما ذكره العلماء من تعريفاتِ التوبة : الوجوب ، والفورية . ولقد جاءت آيات كثيرة في كتاب الله تدل على وجوب التوبة ، من ذلك : ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا ﴾ [٣] .

(١) سورة النور آية رقم ٣١.

(٢) التعريفات للجرجاني ص٨٣.

(٣) سورة هود آية رقم ٣ .

وقوله : أيضاً : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [١] . وأما عن الفورية فقوله تعالى :﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [٢] .

قال ابن عباس والسدي : معناه قبل المرض والموت ، ورُوي عن الضحاك أنه قال : كل ما كان قبل الموت فهو قريب . ولقد أحسن محمود الوراق حيث قال :

قَدِّم لِنَفْسِكَ تَوْبَــةً مَرْجُــوَّةً قَبْلَ الْمَمَاتِ وقَبلَ حَبْسِ الأَلْسنِ
بَادِرْ إِلَى غَلَقِ النُّفُوسِ فَإِنَّهــا ذخرٌ وغَنْمُ لِلْمُنِيبِ الْمُحْــسِنِ

وقد روى الترمذي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) [٣] . ومعنى ما لم يغرغر : ما لم تبلغ روحه حلقومه .

وإذا كان الأمر كذلك فيطيب لي أن أعرض معاني التوبة التي

(١) سورة هود آية رقم ٥٢.

(٢) سورة النساء آية رقم ١٧.

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في الدعوات ٩٨، وابن ماجه في الزهد ٣٠، وصاحب الموطأ في الحدود ٢، وأحمد بن حنبل في المسند، ٢/ ٤٢٠، ١٩٢.

جاءت في كتاب الله تعالى عن طريق الإيجاز غير المخل ، أو التطويل غير الممل . وبالله التوفيق .

معاني التوبة في القرآن الكريم :

يرى صاحب البصائر أن التوبة جاءت في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه : الأول : بمعنى التجاوز والعفو ، وهذا مقيد بـ (على)[١] . قال تعالى :﴿ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [٢] ، وقال تعالى :﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥ ﴾ [٣] . قاتلوهم يجعلكم الله ستار قدرته ، وأداة مشيئته فيعذبهم بأيديكم ويخزهم بالهزيمة ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور جماعة من المؤمنين ممن آذاهم وشردهم المشركون ، يشفها بهزيمة الباطل ، وتشريد

(١) بصائر ذوي التمييز ٢/ ٣٠٨.

(٢) سورة البقرة آية رقم ٥٤.

(٣) سورة التوبة آية رقم ١٤-١٥.

المبطلين.

فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان ، ويفتح بصيرتهم على الهدى ، حين يرون المسلمين ينصرون ، ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم ، ويرون آثار الإيمان في مواقفهم . وهذا ما كان فعلاً ، وعندئذ ينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين[١] .

الثاني : بمعنى الرجوع ، والإنابة ، وهذا مقيد بـ (إلى) قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[٢] . وقال تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾[٣] .

تبت إليك : رجعت عن الأمر الذي كنت عليه ، وذلك شأن الرجل المؤمن صاحب الفطرة السليمة المستقيمة مع ربه الذي عاد ورجع إليه تائباً مستغفراً ، وأما شأن ربه معه فقد ذكره القرآن

(١) راجع في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ١٥٧.

(٢) سورة الأحقاف آية رقم ١٥.

(٣) سورة التحريم آية رقم ٨.

الكريم بقوله : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[١] .

وفي الآية الأخرى : تذكر التوبة النصوحة ، وهي التوبة عن الذنب والمعصية ، تبدأ بالندم على ما كان ، وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة ، فهي من هذا المنطلق تنصح القلب فتخلصه من رواسب المعاصي ، وتدفعه إلى العمل الصالح . ثم تظل تذكر القلب فلا يعود إلى الذنوب[٢] ، ولا يفكر في المعصية ، ولا يقرب منها ، ولا يكون للشيطان عليه من سلطان ، قال تعالى :﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾[٣] .

الثالث : بمعنى الندامة على الزلة ، وهذا غير مقيد لا بـ (إلى) ولا بـ (على) قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟

(١) سورة الأحقاف آية رقم ١٦. وانظر : في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٦٣.

(٢) المرجع السابق ٦/ ٣٦١٨.

(٣) سورة الإسراء آية رقم ٦٥.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [١] .

هؤلاء يفتح القرآن لهم هذه النافذة المضيئة -نافذة التوبة- يفتحها فتنسم نسمة الأمل في الصدور ، وتقود القلوب إلى مصدر النور فلا تيأس من رحمة الله ، وكيف يحدث هذا والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [٢] . وكيف يخالجها قنوط والله تعالى يقول : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [٣] . السيئات جميعها جليلها وحقيرها ، عظيمها وكبيرها . وكيف لا يكون كذلك والله قد أعلن في كتابه عن ذلك بقوله : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [٤] . فهذا إخبار منه سبحانه بأنه رحيم بعباده ، لا

(١) سورة البقرة آية رقم ١٦٠.
(٢) سورة الزمر آية رقم ٥٣.
(٣) سورة الشورى آية رقم ٢٥.
(٤) سورة الأنعام آية رقم ٥٤.

يعجل عليهم بالعقوبة ، ويقبل منهم الإنابة والتوبة ، وقد روى أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده : إن رحمتي تغلب غضبي" [١] .

وإذا كان الأمر كذلك وأن الله تعالى قد فرض التوبة على عباده وأوجبها عليهم قبل أن يظلمهم الموت ، أو أن تنزل عليهم آثاره ، فما هي شروط التوبة ؟

الشروط الواجب توافرها للتوبة :

اتفق العلماء على أن الذنب الذي يريد أن يقلع عنه العبد ويتوب منه ما هو بينه وبين ربه ، فيشترط لذلك شروط ثلاثة :

الأول : الندم على ما سلف منه في الماضي . والندم والندامة التحسر قال تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [٢] .

يندم هؤلاء عندما يجيء أمر الله ، يندم أولئك الذين في قلوبهم

(١) الحديث أخرجه البخاري في التوحيد ٥٥، وبدء الخلق١، ومسلم في التوبة ١٤، ١٦، ابن ماجه في الزهد ٣٥، وأحمد بن حنبل ٢/ ٢٤٢، ٢٥٨،٢٦ .
(٢) سورة سبأ آية رقم ٣٣.

مرض على المسارعة والاجتهاد فيما يغضب الله تعالى ، وعلى النفاق الذي انكشف أمره ، عندئذ يندمون -ولا ينفعهم الندم- ولا ينجيهم من هذا الهول إلا العودة إلى الله تعالى ، تائبين آيبين مقرِّين بذنوبهم .

الثاني : الرجوع والإقلاع عنه في الحال .

يقال : رجعت عن كذا رجعاً ، ورجعت الجواب ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ [١] . وقد جاء الرجوع بمعنى محاسبة النفس والرجوع إليها ، قال تعالى :﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [٢] ، وبمعنى التوبة ، قال تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [٣] . وظلت العناية الإلهية تواليهم بالابتلاءات ، تارة بالنعماء ، وتارة بالبأساء ، لعلهم يرجعون إلى ربهم ، ويتوبون إلى رشدهم ويستقيمون على طريقهم . أما عن الإقلاع في الحال على طريق

(١) سورة التوبة آية رقم ٨٣.

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٦٤.

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٦٨.

الفورية ، فهذا كان نهج المسلمين الأول ، يتلقون الأوامر عن طريق الوحي المتتابع فتعيه قلوبهم ، وتنفذه جوارحهم ، من ذلك عندما نزل قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [١] .

قال ابن جرير الطبري في تفسيره[٢] : حدثنا محمد بن خلف قال : حدثنا سعيد بن محمد الجرمي ، عن أبي تميلة ، عن سلام مولى حفص بن أبي قيس ، عن أبي بريدة ، عن أبيه ، قال : بينما نحن قعود على شراب لنا ، ونحن نشرب الخمر حلا ، إذ قمت حتى آتى رسول الله ﷺ ، فأسلم عليه ، وقد نزل تحريم الخمر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ

(١) سورة المائدة آية رقم ٩٠.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٧/ ٣٤.

﴿ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ فجئت إلى أصحابي ، فقرأتها عليهم ، قال : وبعض القوم شربته في يده قد شرب بعضاً ، وبقي بعض في الإناء ، فقال بالإناء تحت شفته العليا ، كما يفعل الحجام ، ثم صبوا ما في باطيتهم، فقالوا : انتهينا ربنا ، انتهينا ربنا".

إجابة فورية ، وإقلاع عما كانوا عليه من الحلال عندما تحول إلى حرام .

الثالث : العزم على ألا يعاوده في المستقبل . والعزم والعزيمة عقد القلب على إمضاء الأمر ، يقال عزمت الأمر وعزمت عليه واعتزمت ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [1] ، وقال أيضاً : ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [2] ، وقال أيضاً : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [3] أي : : محافظة على ما أمر به ، وعزيمة على القيام بالتكاليف . ويرى النقاش : أن العزم والحزم واحد ، والحاء مبدلة من العين . وقال ابن عطية : وهذا خطأ فالحزم جودة النظر في

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٥٩.

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٨٦.

(٣) سورة طه آية رقم ١١٥.

الأمر وتنقيحه والحذر من الخطأ فيه ، والعزم قصد الإمضاء ، والعرب تقول : (قد أحزم لو أعزم يقول أعرف وجه الحزم ، فإن عزمت فأمضيت الرأي فأنا حازم ، وإن تركت الصواب وأنا أراه وضيعت العزم لم ينفعني الحزم[1] .

هذه هي الشروط الثلاثة للتوبة ، إذا كان الذنب والمعصية التي يريد التوبة منها بينه وبين ربه[2] ، أما إذا كانت المعصية تتعلق بحقوق العباد فقد أضاف العلماء شرطاً آخر هو :

الرابع : أن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كان مالاً أو عقاراً رده لصاحبه ، كما قال الرسول ﷺ : (من استطاع منكم أن يكون مثل صاحب فرق الأرز فليكن مثله) قالوا : ومن صاحب فرق الأرز يا رسول الله ؟ فذكر حديث الغار حين سقط عليهم الجبل ، فقال كل واحد منهم ، اذكروا أحسن عملكم . قالا . وقال الثالث : اللهم إنك تعلم أني استأجرت أجيراً بفرق أرز ، فلما أمسيت عرضت عليه حقه فأبى أن يأخذه وذهب ، فثمرته له حتى جمعت له بقراً

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ٢٥١.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ١٣/ ٤٧١.

ورعاءها . فلقيني فقال أعطني حقي ؟ فقلت : أذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها فذهب فاستقاها)[١] .

إن حقوق الآخرين ، لا تسقط بأي حال من الأحوال إلا إذا تنازل عنها صاحبها . وهناك أحاديث كثيرة ، منها قول الرسول ﷺ: (من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه يوم القيامة)[٢] ، ويوم القيامة : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾[٣] السرائر المكنونة المطوية على الأسرار المحجوبة ، بأن هذا ضرب هذا وهتك عرض ذلك ، وتقوَّل على ثالث ، وقذف رابعاً ، وعندها هو متجرد من كل قوة ، ومن كل ناصر ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾[٤] فإذا رغب في

(١) الحديث أخرجه البخاري في البيوع ، ومسلم في كتاب الذكر حديث ٢٧٤٣ باب قصة أصحاب الغار ، وأبو داود في كتاب البيع حديث ٣٣٨٧.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في الديات ٢١، والبخاري في بدء الخلق(٢) ومسلم في المساقاة ١٣٧، ١٣٩، وأحمد بن حنبل في المسند ١/ ١٨٧، ٣، ١٩٠/ ٤٣٢، ٣٨٧.

(٣) سورة الطارق آية رقم ٩.

(٤) سورة الطارق آية رقم ١٠.

التوبة لينجو من هول هذا اليوم فعليه أن يبرأ من حقوق الآخرين ، فإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه ، أو طلب عفوه ، وإن كان غيبة استحله منها . وإلا فلا توبة له . ويوم القيامة يرى حقوق الآخرين قد سبقته إلى يوم الحشر العظيم تأخذ بتلابيبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[١] .

وإذا كان الأمر كذلك فيطيب لي أن أعرض أمام القارئ أقوال العلماء واستنباطات المفكرين والإسلاميين عن المعاني الآتية في منهج القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة وهي :

١-التوبة واقترانها بالإيمان .

٢-التوبة واقترانها بالصلاة والزكاة .

٣-التوبة واقترانها بالعمل الصالح .

هذا وعلى الله قصد السبيل ومنه السداد والتوفيق .

التوبة واقترانها بالإيمان :

سبق وأن تناولنا مفهوم التوبة عند علماء اللغة ، وعند علماء الاصطلاح وجلينا حقيقتها بما يسره الله لنا من آيات القرآن الكريم

(١) سورة الكهف آية رقم ٤٩.

والسنة النبوية الشريفة ، ونرى قبل البدء في طرح التوبة واقترانه بالإيمان ، أن نضع أمام القارئ نبذة مختصرة عن الإيمان من خلال آيات القرآن الكريم . جاء الإيمان بمعنى التوحيد في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[1] .

قال القرطبي : أي : بما أنزل على محمد ، وقال أبو الهيثم : ومن يكفر بالإيمان أي : يجحده، وروي عن ابن عباس ومجاهد أن المعنى : ومن يكفر بالله . قال الحسن بن الفضل : إن صحت هذه الرواية فمعناها برب الإيمان[2] .

وجاء الإيمان بمعنى التصديق في السر والإعلان ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾[3] . أي الذين صدقوا بما جاء به الرسل ، وما نزل به الوحي . وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ،

(١) سورة المائدة آية رقم ٥ .
(٢) راجع تفسير القرطبي ٦/ ٧٩ .
(٣) سورة البينة آية رقم ٧ .

من أكرم الخلق على الله ؟ قال : "يا عائشة أما تقرئين : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾[1] . وجاء الإيمان بمعنى الصلاة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾[2] أخرج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما وُجه النبي ﷺ إلى الكعبة . قالوا : يا رسول الله ، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ ﴾[3] قال: هذا حديث صحيح[4] ، فسمى الصلاة إيماناً لاشتمالها على نية وقول وعمل .

وقال أبو القسم : الإيمان يستعمل تارة أسماً للشريعة التي جاء بها محمد ﷺ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾[5] ،

(١) راجع فتح القدير ٥/ ٢٧٧ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ١٤٣ .
(٣) سورة البقرة ، آية ١٤٣ .
(٤) سنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ٥/ ٢٠٨ ح٢٩٦٤ .
(٥) سورة البقرة آية رقم ٦٢ .

ويوصف به كل من دخل في شريعته مقراً بالله ومعترفاً بنبوته ، وتارة يستعمل على سبيل المدح ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق ، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء :

تحقيق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بحسب ذلك بالجوارح ، ويقال لكل واحد من الاعتقاد والقول : الصدق ، والعمل الصالح : إيمان [١] .

وبعد هذه الكلمة عن الإيمان يطيب لي أن استعرض أقوال العلماء في اقتران الإيمان بالتوبة . والله الهادي إلى سواء السبيل . قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [٢] .

قال ابن عطية : (تضمنت هذه الآية الوعد بأن الله عز وجل يغفر للتائبين والإشارة إلى من تاب من بني إسرائيل . وفي الآية ترتيب الإيمان بعد التوبة،والمعنى في ذلك أنه أراد بقوله : ﴿ وَءَامَنُوٓاْ ﴾ أن التوبة نافعة لهم منجية فتمسكوا بها ، فهذا إيمان خاص بعد

(١) راجع بصائر ذوي التمييز ٢/ ١٥٠ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٥٣ .

الإيمان على الإطلاق ، ويحتمل أن يريد بقوله : ﴿ وَءَامَنُوٓاْ ﴾ أي : وعمل عمل المؤمنين حتى وافوا على ذلك ، ويحتمل أن يريد التأكيد فذكر التوبة والإيمان إذ هما ملازمان ، إلا أن التوبة – على هذا – تكون من كفر ولابد ، فيجئ ﴿ تَابُواْ ﴾ ، ﴿ وَءَامَنُوٓاْ ﴾ بمعنى واحد ، وهذا لا يترتب في توبة العاصي ، فإن الإيمان متقدم لتلك ولابد . هو وتوبة الكفر متلازمان . وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ إيجاب ووعد مرج . قال : ويحتمل قوله ﴿ تَابُواْ ﴾ ﴿ وَءَامَنُوٓاْ ﴾ أن يكون لم تقصد رتبة الفعلين على حرف الواو في أنها لا توجب رتبة، ويكون ﴿ وَءَامَنُوٓاْ ﴾ بمعنى وهم مؤمنون قبل وبعد) [١] .

إن ما قاله المفسر الكبير ابن عطية من أن هذه الآية إشارة إلى من تاب من بني إسرائيل ، ونحن نعلم أن بني إسرائيل قد آمنوا بموسى ، وخرجوا مع نبيهم فارين من فرعون وجبروته ، فارين إلى الله تعالى ، كما قال : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [٢] .

(١) راجع المحرر الوجيز ٦/ ٩١ .

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٥٠ .

وعندما تركهم موسى ؛ رجعوا عن إيمانهم باتخاذهم العجل إلهاً ، قال تعالى في الآية السابقة على هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[1] .

ثم ماذا ؟ ثم تابوا عن فعلتهم الشنيعة ، عندما استقر الإيمان مرة أخرى في قلوبهم . فالآية على هذا التخريج لا تحتاج إلى هذه الاحتمالات الكثيرة التي ذكرها المفسر الكبير .

ويؤكد الذي ذهبت إليه ما ذكره القرطبي عند حديثه عن هذه الآية بقوله (ثم أخبر الله تعالى : أنه يقبل توبة التائب من الشرك وغيره ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي : الكفر والمعاصي ﴿ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أي : من بعد فعلها ﴿ وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أي : من بعد التوبة ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] .

فإذا تركنا الإمام القرطبي ، واتجهنا إلى صاحب زاد المسير

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٥٢ .

(٢) راجع تفسير القرطبي ٢٩٢ .

لنرى ما ارتآه عند تفسيره لهذه الآية ، نجده يقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنها الشرك .

والثاني : الشرك وغيره من الذنوب . ﴿ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ يعني السيئات . وفي قوله : ﴿ وَءَامَنُوٓا۟ ﴾ قولان :

أحدهما : آمنوا بالله ، وهو يخرج على قول من قال : السيئات هي الشرك .

والثاني : آمنوا بأن الله تعالى يقبل التوبة[1] .

فإذا اتجهنا إلى مفسر قريب العهد بابن الجوزي ، وهو الإمام القرطبي نراه يفرع هذه المسألة ، ويستعرض أقوال العلماء والفرق الذين أدلوا بدلوهم في اقتران التوبة بالإيمان ، فنراه يقول عند حديثه عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

(١) راجع زاد المسير ٣/ ٢٦٦ .

﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾[1]

هذه الآية عامة لكل من عمل ذنباً ، وقيل : لمن جهل فقط ، والتوبة لكل من عمل ذنباً في موضع آخر ، واتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى : ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2] .

وتصح من ذنب مع ألإقامة على غيره من غير نوعه – خلافاً للمعتزلة في قولهم : لا يكون تائباً من أقام ذنب ، ولا فرق بين معصية ومعصية – هذا مذهب أهل السنة .

وإذا تاب العبد فالله سبحانه بالخيار إن شاء قبلها ، وإن لم يشأ لم يقبلها ، وليس قبول التوبة واجباً على الله من طريق العقل – كما قال المخالف – لأن من شرط الواجب أن يكون أعلى رتبة من الموجب عليه ، والحق سبحانه خلق الخلق ومالكهم والمكلف لهم ؛

(١) سورة النساء الآيتان ١٧-١٨ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣١ .

فلا يصح أن يوف بوجوب شيء عليه ، تعالى الله عن ذلك . غير أنه قد أخبر سبحانه – وهو الصادق في وعده – بأنه يقبل التوبة عن العصيان من عباده بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾[1] . وقوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[2] . وقوله : ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾[3] .

فإخباره سبحانه وتعالى عن أشياء أوجبها على نفسه ، يقتضي وجوب هذه الأشياء . والعقيدة أنه لا يجب عليه شيء عقلاً ، فأما السمع فظاهره قبول توبة التائب . قال أبو المعالي[4] وغيره : وهذه

(١) سورة الشورى أية رقم ٢٥ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٠٤ .

(٣) سورة طه آية رقم ٨٢ .

(٤) هو عبدالملك بن عبدالله أبو المعالي الملقب بإمام الحرمين : أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي ، ذهب إلى مكة والمدينة فأفتى ودرس جامعاً لطرق المذاهب ، له العديد من المصنفات منها : (البرهان في أصول الفقه) (العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية) وغير ذلك ، =

الظواهر إنما تعطي غلبة ظن ، لا قطعاً على الله تعالى بقبوله التوبة.

قال ابن عطية : وقد خولف أبو المعالي وغيره في هذا المعنى ، فإذا فرضنا رجلاً قد تاب توبة نصوحاً ، تامة الشروط ، فقال أبو المعالي : ويغلب على الظن قبول توبته ، وقال غيره : يقطع على الله تعالى بقبول توبته ، كما أخبر عن نفسه جل وعز : قال ابن عطية : وكان أُبيّ رحمه الله يميل إلى هذا القول ويرجحه وبه أقول : والله أرحم بعباده من أن ينخرم في هذا التائب المفروض معنى قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [1] . وقوله :﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [2] . وإذا تقرر هذا فاعلم أن في قوله : (على الله) حقاً وليس على ظاهره ، وإنما المعنى : على فضل الله ورحمته بعباده ، وهذا نحو قوله ﷺ لمعاذ : (أتدري ما

=

وتوفى عام ٤٧٨هـ. انظر (وفيات الأعيان) ٣/ ١٦٧ ، (العبر) ٣/ ٢٩١.

(١) سورة الشورى آية رقم ٢٥.

(٢) سورة طه آية رقم ٨٢.

حق العباد على الله ؟) قال : الله ورسوله أعلم . قال : (أن يدخلهم الجنة) [1] . فهذا كله معناه على فضله ورحمته بوعده الحق ، وقوله الصدق ، دليله قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [2] . أي وعد بها . أي أنه وعد ، ولا خلف في وعده أنه يقبل التوبة إذا كانت بشروطها المصححة لها..)[3] . هذا ما قاله القرطبي عن التوبة واقترانها بحقيقة الإيمان . ثم تناول شروط التوبة –التي سبق الحديث عنها– ومضيفاً لها أن يكون الإقلاع عن الذنب أو عدم الرغبة ، أو قلة الحيلة التي يمكن أن تحقق له أهدافه في المعصية أو الجريمة التي تتوق نفسه لارتكابها .

ويطيب لي أن أختم موضوع اقتران التوبة بالإيمان بما قرره أحد العلماء المعاصرين ، وهو العالم الجليل ابن عاشور رحمه الله

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في اللباس ١٠١ والتوحيد ١، ومسلم في الإيمان ٤٩، ٤٨، والترمذي في الإيمان ١٨، وابن ماجه في الزهد ٣٥ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٢.

(٣) راجع تفسير القرطبي ٥/ ٩٠ وما بعدها بتصرف .

صاحب التفسير المشهور ، ولاشك أنه أضاف جديداً إلى ما توصل إليه السابقون من علماء الإسلام الأجلاء ، فهو يقول : (اعتراض بأنهم إن تابوا وآمنوا يغفر الله لهم على عادة القرآن من تعقيب التهديد بالترغيب ، والمغفرة ترجع إلى عدم مؤاخذتهم في عقاب الآخرة وإلى ارتفاع غضب الله عنهم في المستقبل .

والمراد بالسيئات : ما يشمل الكفر ، وهو أعظم السيئات ، والتوبة منه وهي الإيمان ، وعطف الإيمان على التوبة ، مع أن التوبة تشكل من حيث أن الإيمان توبة من الكفر ، إما للاهتمام به ؛ لأنه أصل الاعتداد بالأعمال الصالحة عند الله تعالى كقوله : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾ [1] ولئلا يظن أن الإشراك لخطورته لا تنجي منه التوبة ، وإما أن يراد بالإيمان ، إيمان خالص فيشمل عمل الواجبات) [2] هذا ما قاله العلماء ، وما أضافه ابن

(١) سورة البلد آية رقم ١٢-١٧ .

(٢) راجع تفسير ابن عاشور ٩/ ١٢٠ .

عاشور عن اقتران التوبة بالإيمان .

ولا شك أن الجميع من خلق الله تعالى ، وهم تحت مشيئته وإرادته ، لا يملكون التوبة إلا أن يتوب الله عليهم ؛ مصداقاً لقوله تعالى :﴿ وَظَنُوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾ [1] ، أي قبل مشيئته لا يملكون التوبة ، ولا يقدرون عليها . والرأي الذي نرتضيه نتيجة لما سبق أن توبة التائب بشروطها مقبولة ؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [2] ، وإذا كان الأمر كذلك فعلينا أن نجلي أقوال العلماء وردودهم في التوبة واقترانها بالصلاة والزكاة . وعلى الله قصد السبيل .

التوبةُ واقترانُها بالصَّلاةِ والزَّكاة :

قبل أن نتناول هذا الموضوع بالتبيين والتوضيح ، وعرض أقوال العلماء ومفكري الإسلام بشأنه ، نرى أن نقدم بين يدي هذا الكتاب نبذة مختصرة عن مفهوم الصلاة والزكاة في منهج الإسلام .

(١) سورة التوبة آية رقم ١١٨ .

(٢) سورة الشورى آية رقم ٢٥ .

الصلاة من العبادات التي لم تنفك شريعة منها ، وإن اختلف صورها بين شرع وآخر ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [١] .

وقال بعضهم : أصل الصلاة من الصلي ، ومعنى صلى الرجل أزال عن نفسه بهذه العبادات الصلي الذي هو نار الله الموقدة.

والصلاة : هي الصلة بين العبد وربه ، والرابطة التي تربط الأرض بالسماء ، ومعراج المؤمنين إلى ربهم ، والمطية السريعة التي تنقلنا إلى رحاب الله سبحانه وتعالى عندها يزول البعد ، وتنمحي المسافات ؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [٢] .

والصلاة رحمة مهداة من الله إلى عباده ، ومن الملائكة الأبرار إلى العباد المخلصين . يقول الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [٣] .

(١) سورة النساء آية رقم ١٠٣.

(٢) سورة العلق آية رقم ١٩.

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٤٣.

والصلاة رحمة ؛ لأنها تخرج المؤمنين من ظلمات الضلالة إلى نور الإيمان ، ومن العماية إلى الهدى ، ومن الطريق المشتبه إلى الطريق الواحد المستقيم .

وصلاة الملائكة رحمة واستغفار ، قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً ﴾ [١] .

وصلاة الرسول ﷺ لأمته رحمة ودعاء ، قال الله تعالى مخاطباً رسوله الكريم ﷺ : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [٢] .

هذه هي الصلاة في منهج الإسلام فماذا عن الزكاة ؟

الزكاة : النمو الحاصل عن بركة الله تعالى : ومنه الزكاة لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء ، وتسميته بذلك لما يكون فيه من رجاء البركة ، أو لتزكية النفس أي تنميتها بالخيرات والبركات .

وبزكاة النفس وطهارتها يصير الإنسان مستحقاً في الدنيا الأوصاف المحمودة ، وفي الآخرة الأجر والثواب . والتطهير

(١) سورة غافر آية رقم ٧.

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٠٣.

ينسب تارة إلى العبد ؛ لاكتسابه ذلك ، نحو قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ ﴾ [١] ، وتارة إلى الله تعالى ؛ لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة ، نحو : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ [٢]، وتارة إلى النبي ﷺ ؛ لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم ، نحو قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [٣] .

أما اقترانها بالتوبة فذلك لقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ [٤] .

يقول الماوردي [٥] . عند تفسيره لهذه الآية : (أي : أسلموا ؛

(١) سورة الشمس آية رقم ٩.

(٢) سورة النساء آية رقم ٤٩.

(٣) سورة التوبة آية رقم ١٠٣.

(٤) سورة التوبة آية رقم ٥.

(٥) هو ابن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي ، الفقيه الشافعي . كان من وجوه الفقهاء الشافعية ، ولد في البصرة عام ٣٦٤هـ وتوفي ببغداد عام ٤٥٠هـ ، من مصنفاته : الأحكام السلطانية ، والنكت والعيون ، والحاوي في فقه الشافعية ، وغير ذلك . انظر طبقات الشافعية ٣/ ٣٠٣، وفيات الأعيان ٣/ ٢٨٢.

لأن التوبة من الكفر تكون بالإسلام .

﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : أي : اعترفوا بإقامتها ، وهو مقتضى قول أبي حنيفة؛ لأنه لا يقتل تارك الصلاة إذا اعترف بها .

الثاني : أنه أراد فعل الصلاة ، وهو مقتضى قول مالك والشافعي ؛ لأنهما يقتلان تارك الصلاة وإن اعترف بها .

﴿ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ يعني : اعترفوا بها على الوجهين معاً ؛ لأن تارك الزكاة لا يقتل مع الاعتراف بها ، وتؤخذ من ماله جبراً . وهذا إجماع [١] .

هذا ما قاله الماوردي . ولاشك أن وظيفته كقاض يمحِّص الأحكام ، ويقوّم معوجها عن طريق الأدلة والبراهين ، كان لها أعمق الأثر فيما خطه قلمه ، سواء في مجال السياسة وإقامة الدولة ، أو في تفسيره لآيات الكتاب العزيز . أما الإمام القرطبي فيقول:(هذه الآية فيها تأمل . وذلك أن الله تعالى علق القتل على

(١) راجع النكت والعيون تفسير الماوردي ٢/ ١٢٠.

الشرك، ثم قال : ﴿ فَإِن تَابُواْ ﴾ والأصل : أن القتل متى كان للشرك يزول بزواله ، وذلك يقتضي زوال القتل بمجرد التوبة ، من غير اعتبار إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وهذا بيّن في هذا المعنى ، غير أن الله تعالى ذكر التوبة وذكر معها شرطين آخرين ، فلا سبيل إلى إلغائهما ، نظيره قوله ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) [1] .

قال ابن العربي [2] : فانتظم القرآن والسنة واطردا . ولا خلاف

(١) الحديث أخرجه البخاري في الإيمان ١٧، ٢٨ ، والصلاة ٢٨، والزكاة ١ ومسلم في كتاب الإيمان ٣٢، ٣٦ وأبو داود في الجهاد ٩٥، والترمذي في التفسير سورة ٨٨، وابن ماجه في الفتن ١ .

(٢) هو محمد بن عبدالله بن محمد المعافري أبو بكر بن العربي ، قاض من حفاظ الحديث ، ولد في أشبيلية عام ٤٦٨هـ ، ورحل إلى المشرق، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين ، وصنف في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ ، توفى عام ٥٤٦هـ ، راجع وفيات الأعيان ٤/ ٢٩٦، العبر ٤/ ١٢٥ .

بين المسلمين أن من ترك الصلاة وسائر الفرائض مستحلاً كفر ، ومن ترك السُّنَّةَ متهاوناً فسق ، ومن ترك النوافل لم يحرج ، إلا أن يجحد فضلها فيكفر ؛ لأنه يصير راداً على الرسول ﷺ ما جاء به وأخبر عنه .

وقال أيضاً هذه الآية دالة على أن من قال : قد تبت ، أنه لا يتجزأ بقوله حتى ينضاف إلى ذلك أفعاله المحققة للتوبة ؛ لأن الله عز وجل شرط هذا مع التوبة إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ليحقق بهما التوبة) [1] .

ونرى أن القُرطبي في كلمته هذه فرق بين القتل وبين قبول التوبة ، فإذا تاب رُفِع عنه القتل . ولكن تحقيق التوبة ودخوله في زمرة المؤمنين لا يكون إلا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . أي أن يحقق القول الفعل . وإذا كانت هذه تصورات السابقين من رجالات التفسير ، فيطيب لنا أن نتعرف على أقوال بعض المعاصرين بالنسبة للآية التي معنا .

يقول سيد قطب : (لقد كانت هناك وراءهم اثنتان وعشرون

(١) راجع تفسير القرطبي ٨/ ٧٤.

سنة من الدعوة والبيان ، ومن إيذائهم للمسلمين وفتنتهم عن دينهم، ومن حرب للمسلمين وتأليب على دولتهم ، ثم من سماحة هذا الدين . ورسوله وأهله معهم ، .. وإنه لتاريخ طويل ، ومع هذا كله فقد كان الإسلام يفتح لهم ذراعيه ؛ فيأمر الله نبيه والمسلمين الذين أوذوا وفتنوا وحوربوا وشردوا وقتلوا .. كان يأمرهم أن يكفوا عن المشركين إن هم اختاروا التوبة إلى الله تعالى ، والتزموا شعائر الإسلام التي تدل على اعتناقهم هذا الدين، واستلامهم له وقيامهم بفرائضه ، وذلك أن الله لا يرد تائباً مهما تكن خطاياه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [1] .

ثم يقول : (ما جاء في الآية) هو نص كان يواجه واقعاً في مشركي الجزيرة يومذاك . فما كان أحدهم ليعلن توبته ، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة إلا وهو يعني الإسلام كله ، ويعني استسلامه له ودخوله فيه . فنصت الآية على التوبة ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، لأنه ما كان ليفعل هذا منهم في ذلك الحين إلا من نوى الإسلام ، وارتضاه بكامل شروطه وكامل معناه ، وفي أولها

(١) سورة التوبة آية رقم ٩٩.

الدينونة لله وحده ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، والاعتراف برسالة محمد ﷺ بشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ . فليست هذه الآية بصدد تقرير حكم فقهي ، إنما هي بصدد إجراء واقعي له ملابساته) [1] .

ومع تقديرنا واحترامنا لصاحب الظلال ، نرى أن الآية قد تضمنت حكماً فقهياً ، وهو عدم القتل وعصمة أموالهم ، وذلك من منطلق حديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم ...) [2] إلخ .

فهذا الحديث أمر من الله تعالى بمقاتلتهم وسفك دمائهم وغنيمة أموالهم . ثم جاءت الآية ، وكأنها تقول للرسول ﷺ كف عن قتلهم وأخذ أموالهم بقوله تعالى :﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [3] . وهل التخلية إلا الكف والمنع ؟ فكيف لا تكون الآية متضمنة حكماً فقهيا . وإذا كانت هذه الآية قد تضمنت (التخلية لينطلقوا إلى حال

(١) راجع في ظلال القرآن لسيد قطب ، ٣/ ١٦٠١، ١٦٠٢.

(٢) سبق تخريج هذا الحديث قريباً من هذا ص٤٢ .

(٣) سورة التوبة آية ٥.

سبيلهم ، فإن الآية التي جاءت بعدها في نفس السورة قد أوجبت على المسلمين مؤاخاتهم في الدين ومراعاتهم في شئون الحياة ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [1] . الآية الثانية : قال الله تعالى :﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [2] .قال ابن الجوزي في تفسيره : أي : فتجاوز عنكم وخفف بنسخ إيجاب الصدقة . وقال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك –أي النسخ– لعشر ليال . وقال قتادة : ما كان إلا ساعة من نهار [3] .

فابن الجوزي يرى أن قوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ [4] . قد نسخت بقوله تعالى : ﴿ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ .

(١) سورة التوبة آية رقم ١١.

(٢) سورة المجادلة آية رقم ١٣.

(٣) راجع زاد المسير ٨/ ١٩٥.

(٤) سورة المجادلة آية رقم ١٢.

فإذا أردنا أن نتعرف على رأي ابن عطية في تفسيره لهذه الآية ، فنراه ينفي قضية النسخ . ونص كلامه في ذلك : (ومن قال : إن هذه الصدقة منسوخة بآية الزكاة فقوله ضعيف لا يحصل كيفية النسخ ، وما ذكر في نحو هذا عن ابن عباس ﷺ لا يصح عنه . والله تعالى أعلم) [1] .

وقضية النسخ التي قال بها ابن الجوزي واستبعدها ابن عطية، لم تجد حلاً لها عند المفسر المعاصر ابن عاشور . فنراه يقول : (المشهور عند جمع من سلف من المفسرين ، أنها نزلت بعد عشرة أيام من التي قبلها ، وذلك أن بعض المسلمين القادرين على تقديم الصدقة قبل النجوى شق عليهم ذلك ، فأمسكوا عن مناجاة النبي ﷺ فأسقط الله وجوب الصدقة .

وقد قيل : لم يعمل بهذه الآية غير علي بن أبي طالب ﷺ ولعل غيره لم يحتج إلى نجوى الرسول ﷺ واقتصد مما كان يناجيه) . ثم يتابع حديثه قائلاً : (قال المفسرون : على أن هذه الآية ناسخة للتي قبلها فسقط وجوب تقديم الصدقة لمن يريد مناجاة الرسول ﷺ ،

(١) تفسير ابن عطية ١٤/ ٣٥٥.

وروي ذلك عن ابن عباس ﷺ واستبعده ابن عطية)[1] .

إن ابن عاشور رحمه الله لم يضف جديداً إلى ما قاله ابن الجوزي وما اعترض به ابن عطية ، الأمر الذي يقتضينا أن نتعرف على رأي صاحب الظلال لعلنا نجد عنده إضافة جديدة في تفسير هذه الآية . قال صاحب الظلال : وهكذا يتولى القرآن تربية النفس وتهذيبها ، وتعليمها الفسحة والسماحة ، والطاعة بأسلوب التشويق والاستجاشة ، فالدين ليس بالتكاليف الحرفية ، كذلك يعلمهم القرآن أدباً آخر في علاقتهم برسول الله ﷺ فيبدو أنه كان هناك تزاحم على الخلوة برسول الله ﷺ ليحدثه كل فرد في شأن يخصه ويأخذ فيه توجيهه ورأيه أو ليستمتع بالانفراد به مع عدم التقدير لمهام رسول الله ﷺ الجماعية وعدم الشعور بقيمة وقته ، وبجدية الخلوة به ، وأنها لا تكون إلا لأمر ذي بال ، فشاء الله أن يشعرهم بهذه المعاني بتقرير ضريبة للجماعة من مال الذي يريد أن يخلو برسول الله ﷺ ويقتطع من وقته الذي هو من حق الجماعة في صورة صدقة يقدمها قبل أن يطلب المناجاة والخلوة .. ولكن الأمر

(١) راجع تفسير ابن عاشور ٢٨/ ٤٦.

شق على المسلمين ، وعلم الله ذلك منهم ، وكان الأمر قد أدى غايته ، وأشعرهم بقيمة الخلوة التي يطلبونها ، فخفف الله عنهم ونزلت الآية التالية برفع هذا التكليف ، وتوجيههم إلى العبادات والطاعات المصلحة للقلوب[1] .

إن صاحب الظلال قد وضع يده على الأهداف السامية التي أرادها الله سبحانه وتعالى من الجماعة الإسلامية ، وهو إخساسهم بقيمة الوقت بالنسبة للرسول ﷺ وهذا الوقت يجب أن يكون خالصاً لجماعة المسلمين بعامةً ، إلا إذا كانت هناك ضرورة ملحة لبعض الأفراد بالانفراد برسول الله ﷺ شريطة ألا يطغى ذلك على مصلحة الجماعة . ولقد استجاب المسلمون لهذه التربية العالية التي أمرهم بها ربهم جل وعلا . وإذا كان الأمر كذلك فيطيب لنا أن نتناول بالعرض والإنابة الموضوع الثالث : وهو اقتران التوبة بالعمل الصالح . والله الهادي إلى ما يحب ويرضى .

(١) راجع في ظلال القرآن ٨/ ٢١ بتصرف .

التَّوْبَةُ والْعَمَلُ الصَّالِحُ :

خلق الله تعالى الإنسان ، وزوده بقوى وطاقات لا حصر لها ، وما زال العلم يكشف عنها يوماً بعد يوم ، مما يجعل العقول تصاب بالدهشة والانبهار .

والإسلام يعمل دائماً على توجيه هذه الطاقات توجيهاً حسناً في طريق العمل والإنتاج ، على أساس من شرائعه ومبادئه . والعمل في منهج الإسلام ، هو العمل المقبول عند الله تعالى ؛ لأنه يسير حسب شرائعه ووحيه . قال الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [1] . وقال أيضاً : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [2] .

يجزيهم الله أحسن ما عملوا ؛ لأنهم لا يغفلون عن أداء حق الله في الصلاة ، وأداء حق العباد في الزكاة ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ

(١) سورة الأحقاف آية رقم ١٦ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٨ .

وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [1] .

تتقلب فلا تثبت على شيء من الهول والكرب والاضطراب ، وهم يخافون ذلك اليوم ؛ فلا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وهم مع هذا الخوف يعلقون رجاءهم بثواب الله ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ والعمل في منهج الإسلام دعامة الحياة ، ووسيلة لتحقيق دور الخلافة في الأرض . قال تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [2]

إن الندم والتوبة ليسا نهاية المطاف ، ولكنه العمل الذي يعقب الندم والتوبة ، وللنية الطيبة مكانها ، ولكنها هي بذاتها ليست مناط الحكم والجزاء ، إنما تحسب مع العمل ، فتحدد قيمة العمل ، وهذا معنى الحديث : (إنما الأعمال بالنيات) [3] .

(١) سورة النور آية رقم ٣٧.

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٠٥ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه ١/ ٢ كتاب بدء الوحي ، ومسلم في صحيحه ٢/ ١٥١٥ كتاب الإمارة ، بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم .

الأعمال .. لا مجرد النيات . ولهذا لما سئل الرسول ﷺ : أي الكسب أطيب قال : (عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور) [١] . وعن أنس رضي الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ في سفر ، فمنا الصائم ومنا المفطر . قال : فنزلنا منزلاً في يوم حار ، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء فمنا من يتقي الشمس بيده . قال : فسقط الصوام – إعياء – وقام المفطرون فضربوا الأندية وسقوا الركاب . فقال الرسول ﷺ : (ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله) [٢] .

بل إن الإسلام عَدَّ الإقبال على العمل والتشمير عن ساعد الجد فيه ضرب من الجهاد في سبيل الله . مر رجل على النبي ﷺ فرأى أصحاب الرسول من جلده ونشاطه في الاكتساب والارتزاق ما حملهم على الكلام فيه ، قالوا : يا رسول الله لو كان في سبيل الله هذا ؟ فقال الرسول ﷺ : (إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله . وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين

(١) رواه أحمد في مسنده ٤/ ١٤١ عن رافع عن خديج .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في الصيام ٩٧، وأبو داود في الصوم ٤٢، والترمذي في الصوم ١٩، والنسائي في الصيام ٥٢، ٥٩، وأحمد بن حنبل في المسند / ١٢، ٧٨، ٣٥٩.

فهو في سبيل الله . وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله . وإن كان خرج يسعى رياء ومفخرة فهوة في سبيل الشيطان) [١] .

ومن هنا جاءت التوبة مرتبطة بالعمل الصالح في كثير من آيات القرآن الكريم ؛ من ذلك قول الله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [٢] .

فإذا أردنا أن نتعرف على أقوال المفسرين في هذه الآية ، نرى الإمام الطبري يستهل حديثه عن هذه الآية بقوله : (إلا من أناب من كتمانه ذلك منهم ، وراجع التوبة بالإيمان بمحمد ﷺ ، والإقرار به وبنبوته ، وتصديقه فيما جاء به من عند الله ، وبيان ما أنزل الله في كتبه التي أنزل على أنبيائه ؛ من الأمر باتباعه ، وأصلح حال نفسه بالتقرب إلى الله من صالح الأعمال بما يرضيه عنه ، وبين الذي علم من وحي الله الذي أنزله إلى أنبيائه ، وعهد إليهم في كتبه فلم

(١) الحديث أخرجه مسلم في الزكاة ٣٨، والترمذي في البر ٤٢، وأحمد بن حنبل في المسند ٥/ ٢٨٤.

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٦٠.

يكتمه، وأظهره فلم يخفه ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ يعني هؤلاء الذين فعلوا هذا الذي وصفت منهم ، وهم الذين أتوب عليهم ، فأجعلهم من أهل الإياب إلى طاعتي والإنابة إلى مرضاتي) [1] .

فنرى الطبري اشترط لتوبة الله على عباده شروطاً ثلاثة :

أولاً : الإيمان الكامل بنبوة محمد ﷺ ، والتصديق بكل ما جاء به من عند ربه .

ثانياً : إصلاح حال نفسه بالتقرب إلى ربه ، والعمل على مرضاته ، والمداومة على هذا العمل .

ثالثاً : عدم كتمان ما أنزل الله على رسوله ، بل عليه إذاعته وإشاعته بين الناس ، حتى يكون من المقبولين الذي قال الله تعالى عنهم : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ [2] . ويقول ابن عطية : ثم استثنى الله تعالى التائبين الذين أصلحوا في أعمالهم وأقوالهم . ثم يوضح أن توبة الله على عبده : هي رجوعه به من المعصية إلى

(١) راجع تفسير الطبري ٣/ ٢٥٩.

(٢) سورة التوبة آية رقم ١١٨.

الطاعة [1] . ولا نرى أن ابن عطية قد أضاف جديداً عما وضحه وبيّن معالمه شيخ المفسرين الطبري .

أما عند الإمام الطبري فهو يقول عند تفسيره لهذه الآية : (استثنى الله تعالى التائبين الصالحين لأعمالهم وأقوالهم المنيبين لتوبتهم ولا يكفي في التوبة عند علمائنا قول القائل : قد تُبتُ ، حتى يظهر منه في الثاني خلاف الأول . فإن كان مرتداً رجع إلى الإسلام مظهراً شرائعه ، وإن كان من أهل المعاصي ظهر منه العمل الصالح وجانب أهل الفساد والأحوال التي كان عليها ، وإن كان من أهل الأوثان جانبهم وخالط أهل الإسلام ، وهكذا يظهر عكس ما كان عليه) [2] .

إن الإمام القرطبي وضع نصب عينيه عند تفسيره لهذه الآية أن التوبة إسلام جديد ، والإسلام كما قال الرسول ﷺ يجب ما قبله [3] . فهو يرى أن التائب يعود إنساناً جديداً في كل تصرفاته

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٢/ ٤٥.

(٢) تفسير الطبري ٣/ ٢٦٠.

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٥.

وأحواله ، ينسلخ من جهالته الأولى ليكون المؤمن التقي الورع الذي يخاف الله ويخشاه ويجعل بينه وبين حياته الأولى وتصرفاته السابقة سداً منيعاً من الحصانة والوقاية وخشية الله تعالى في السر والجهر .

فإذا تركنا الإمام القرطبي واتجهنا إلى العالم المعاصر ابن عاشور ، نراه يتأثر بما قاله ابن مسعود : إن الآية خاصة بمن تاب من اليهود . يقول : (وشرط للتوبة أن يصلحوا ما أفسدوا ، وهو بإظهار ما كتموه وأن يبينوه للناس ، فلا يكفي اعترافهم وحدهم ، أو في خلواتهم ، فالتوبة هنا الإيمان بمحمد ﷺ ، فإنه رجوع عن كتمانهم الشهادة له الواردة في كتبهم ، وإطلاق التوبة على الإيمان بعد الكفر وارد كثيراً في كتاب الله ، لأن الإيمان هو توبة الكافر من الكفر ، وإنما زاد بعده ﴿ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ ﴾ ؛ لأن شرط كل توبة أن يتدارك التائب ما يمكن تداركه مما أضاعه بفعله الذي تاب عنه)[1].

ثانياً : قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا

(١) تفسير ابن عاشور ٢/ ٧٢.

فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾[1] .

قال الإمام القرطبي : ﴿ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ قال قتادة والسدي : معناه التوبيخ والتعيير . وقالت فرقة : هو السب والجفاء ذو تعيير. قال ابن عباس : النيل باللسان والضرب بالنعال .

واختلف العلماء في تأويل قوله تعالى : (والتي) وقوله : ﴿ وَٱلَّذَانِ ﴾ فقال مجاهد وغيره : الآية الأولى في النساء عامة محصنات وغير محصنات ، والآية الثانية في الرجال خاصة . وبين لفظ التثنية صنفي الرجال من أحصن ومن لم يحصن ، فعقوبة النساء الحبس ، وعقوبة الرجال الأذى ، وهذا قول يقتضيه اللفظ ، ويستوفي نص الكلام أصناف الزناة ، ويؤيده من جهة اللفظ قوله في الأولى : (من نسائكم) وفي الثانية : (منكم) .

وقوله تعالى : ﴿ فإن تابا ﴾ أي : من الفاحشة ﴿ وأصلحا ﴾ يعني العمل فيما بعد ذلك . ﴿ فأعرضوا ﴾ أي : اتركوا أذاهما وتعييرهما . وإنما كان هذا قبل نزول الحدود . فلما نزلت الحدود

(١) سورة النساء آية رقم ١٦.

نسخت هذه الآية . وليس المراد بالإعراض الهجرة ، ولكنها متاركة معرض ، وفي ذلك احتقار لهم بسبب المعصية المتقدمة ، وبحسب الجهالة في الآية الأخرى . والله تواب أي : راجع بعباده عن المعاصي[1] .

لقد جلى القرطبي الآية ووضحها وأزال ما وقع فيه العلماء من لبس وتخبط لا يسنده دليل ، ولا يؤيده نص ، ومع هذه التجلية جاء في النهاية ، وأيَّد ما قاله العلماء من نسخ هذه الآية ، ولكنه لم يوضح لنا العقوبة الواقعة على الرجلين اللذين يأتيان هذه الفاحشة المنكرة بعد نزول الحدود .

وإذا كان هذا ما قاله صاحب الجامع لأحكام القرآن في القرن السابع الهجري ، فماذا يمكن أن يضيفه صاحب الظلال في القرن الخامس عشر للهجرة ؟

يقول سيد قطب في قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ ﴾ فالتوبة والإصلاح -كما سيأتي- تعديل أساسي في الشخصية والكينونة والوجهة والطريق والعمل والسلوك ،

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/ ٨٦، ٩٠.

ومن ثم تقف العقوبة ، وتكف الجماعة عن إيذاء المنحرفين الشاذين، وهذا هو الإعراض عنهما في هذا الموضوع ، أي : الكف عن الإيذاء : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ وهو الذي شرع العقوبة ، وهو الذي يأمر بالكف عنها عند التوبة والإصلاح ، ليس للناس من الأمر شيء في الأولى ، وليس لهم من الأمر شيء في الأخيرة ، إنما هم ينفذون شريعة الله وتوجيهه ، وهو تواب رحيم ، يقبل التوبة ويرحم التائبين .

واللمسة الإنسانية في هذه الإيماءة ، هو توجيه قلوب العباد للاقتباس من خُلق الله ، والتعامل فيما بينهم بهذا الخلق ، وإذا كان الله تواباً رحيماً ، فينبغي لهم أن يكونوا هم فيما بينهم متسامحين رحماء أمام الذنب الذي سلف ، وأعقبه التوبة والإصلاح . إنه ليس تسامحاً في الجريمة وليس رحمة بالفاحشين ، فهنا لا تسامح ولا رحمة، ولكن سماحة ورحمة بالتائبين المتطهرين المصلحين ، وقبولهم في المجتمع ، وعدم تذكيرهم وتعييرهم بما كان منهم من ذنب تابوا عنه ، وتطهروا منه ، وأصلحوا حالهم بعده ، فينبغي -حينئذ- مساعدتهم على استئناف حياة طيبة نظيفة كريمة ، ونسيان

جريمتهم حتى لا يثير في نفوسهم التأذي كلما واجهوا المجتمع بها ، مما قد يحمل بعضهم على الانتكاس والارتكاس واللجاج في الخطيئة ، وخسارة أنفسهم في الدنيا والآخرة ، والإفساد في الأرض، وتلويث المجتمع ، والنقمة عليه في ذات الأوان .

وقد عدلت هذه العقوبة كذلك -فيما بعد- فروى أهل السنن حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به) [1] .

وتبدو في هذه الأحكام عناية المنهج الإسلامي بتطهير المجتمع الإسلامي من الفاحشة ، ولقد جاءت هذه العناية مبكرة . فالإسلام لم ينتظر حتى تكون له دولة في المدينة ، وسلطة تقوم على

(١) الحديث أخرجه أبوداود في كتاب الحدود ٢٩ باب فيمن عمل عمل قوم لوط ٤٤٦٢ بسنده عن ابن عباس قال : (قال رسول الله ﷺ ...) وذكره، والترمذي في الحدود حديث ١٤٥٦ باب في حد اللوطي ، وابن ماجه في الحدود حديث ٢٥٦٤ باب من عمل عمل قوم لوط ونسبه المنذري للنسائي أيضاً ولفظه عنده : (لعن الله من عمل عمل قوم لوط) كررها ثلاثاً .

شريعة الله ، وتتولاها بالتنفيذ ؛ فقد ورد النهي عن الزنا في سورة الإسراء المكية قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [1] .

كما ورد في سورة المؤمنون : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [2] .

وكرر هذا القول في سورة المعارج ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [3] . ويتابع صاحب الظلال حديثه قائلاً : (ولكن الإسلام لم تكن له في مكة دولة . ولم تكن له فيها سلطة ، فلم يسنّ العقوبات لهذه الجريمة التي نهى عنها في مكة ، إلا حين استقامت له الدولة والسلطة في المدينة ، ولم يعتبر النواهي والتوجيهات

(١) سورة الإسراء آية رقم ٣٢.

(٢) سورة المؤمنون الآيات من ١-٦.

(٣) سورة المعارج آية رقم ٢٩-٣٠.

وحدها كافية لمكافحة الجريمة ، وصيانة المجتمع من التلوث ، فلما أن أصبحت له دولة أخذ يزاول سلطته في صون المجتمع من الفاحشة عن طريق العقوبة والتأديب ، إلى جانب التوجيه والموعظة)[1] .

إن صاحب الظلال يحصر تصوراته في هذه الآية في نقاط ثلاث : **الأولى** : ما أطلق عليه تعديل أساسي في الشخصية الإنسانية التي كانت منحرفة عن الطريق السويّ ، فهي تسير على غير هدىً من وحيٍ ، أو دليلٍ من عقلٍ ، وتتخبط من جراء وسوسة الشيطان لها ، حتى إذا تابت ، وآبت ، واستقامت على الصراط المستقيم ، أصبحت لا يغريها لهو الحديث ، ولا يأخذ بلبها بهرج الدنيا وزخرفها .

الثانية : على المجتمع الإسلامي الاتباع لا الابتداع ، والتخلق بأخلاق الله تعالى التي أمرنا بها ، وما دام الله قد حرَّم الظلم على نفسه ، وأمرنا بعدم التظالم ، فعلينا السمع والطاعة .

وما دام الله رؤوفاً رحيماً ، فعلينا أن نرحم هؤلاء الذين عادوا

(١) في ظلال القرآن بتصرف ٢/ ٢٧٧، ٢٧٨.

إلى طريق الإيمان ؛ فلا نؤذيهم بقارع القول ، ولا نكون عوناً للشيطان عليهم ، بل علينا أن نساعدهم ؛ لاستئناف حياتهم الجديدة الطاهرة الملتزمة بتعاليم الإسلام .

الثالثة : حرص الإسلام على سلامة مجتمعه من الفحش والتفاحش حتى قبل أن تكون له دولة تقيم الحدود ، وترد الباغين عن تلويث المجتمع ، كانت له توجيهاته السليمة في التنفير من الزنا وأساليب المنكر ، واستمر الوضع على ذلك حتى أقيمت دولته، عندما شرعت الحدود وقننت العقوبات ؛ لأن الله يزع بالسلطان ما لم يزع بالقرآن .

ثالثاً : قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾[1] . قال الله سبحانه وتعالى ذلك بعد قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾[2] . وسنحاول بمشيئة الله أن تكون لنا سياحة مع

(١) سورة النساء آية رقم ١٤٦.

(٢) سورة النساء آية رقم ١٤٥.

المفسرين ، وأقوال المفكرين الإسلاميين لنتعرف على تفسيرهم لهذه الآية .

قال ابن الجوزي في تفسيره : (قال مقاتل : سبب نزولها أن قوماً قالوا عند ذكر مستقر المنافقين ، فقد كان فلان وفلان منافقين، فتابا ، فكيف يفعل بهم ؟ فنزلت هذه الآية . وعلى هذا يكون المعنى : إلا الذين تابوا من النفاق وأصلحوا أعمالهم بعد التوبة[1] .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم قد تعجبوا من توبة المنافقين الذين وصفهم الله تعالى : بأنهم في الدرك الأسفل من النار. دليله ما رواه الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن الأسود قال : (كنا في حلقة عبدالله ، فجاء حذيفة حتى قام علينا فسلم ، ثم قال : لقد نزل النفاق على قوم خير منكم . قال الأسود سبحان الله؟ إن الله يقول : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[2] . فتبسم عبدالله ، وجلس حذيفة في ناحية المسجد ، فقام عبدالله فتفرق أصحابه ، فرماني بالحصى فأتيته . فقال حذيفة : عجبت من

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٢/ ٢٣٤.

(٢) سورة النساء آية رقم ١٤٥.

ضحكه وقد عرف ما قلت ، لقد أنزل النفاق على قوم كانوا خيراً منكم ثم تابوا ، فتاب الله عليهم[1] .

وما قاله ابن عاشور لا يخرج عما جاء في صحيح البخاري من أن الآية نزلت في توبة المنافقين .

وقال صاحب الظلال : (وفي مواضع أخرى كان يكتفي بأن يقول : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾ فالتوبة والإصلاح يتضمنان الاعتصام بالله ، وإخلاص الدين لله ؛ لأنه يواجه نفوساً تذبذبت ، وتولت غير الله ؛ فناسب أن ينص عند ذكر التوبة والإصلاح على التجرد لله ، والاعتصام به وحده ، وخلاص هذه النفوس من تلك المشاعر المذبذبة ، وتلك الأخلاق المخلخلة ليكون في الاعتصام بالله وحده قوة وتماسك ، وفي الإخلاص لله وحده خلوص وتجرد .

وبذلك تخف تلك الثقلة التي تهبط بالمنافقين في الحياة الدنيا إلى اللصوق بالأرض ، وتهبط بهم في الحياة الآخرة إلى الدرك الأسفل من النار . وبذلك يرتفع المؤمنون منهم إل مصاف

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ٨/ ٢٦٦ ح٤٦٠٢.

المؤمنين المعتزين بعزة الله وحده ، المستعلين بالإيمان ، المنطلقين من ثقلة الأرض بقوة الإيمان ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [1] .

وبهذه اللمسات المنوعة يكشف حقيقة المنافقين في المجتمع المسلم ويقلل من شأنهم ، وينبه المؤمنين إلى مزالق النفاق ، ويحذرهم مصيره ، ويفتح باب التوبة للمنافقين ، يحاول من فيه خير أن يخلص نفسه ، وينضم إلى الصف المسلم في صدق وحرارة وفي إخلاص) [2] .

وفي هذه الآية تتجلى شفافية صاحب الظلال ، فنراه يبرز نقاطاً جديدة في تفسير الآية ، تستروحها نفوس القابضين على دينهم في القرن العشرين ، فتأخذ بمجامع قلوبهم وتزيدهم قوة إيمان وتسلحهم بأسلحة واقية ضد طغيان المادية ، وضلالات أصحابها . ومن هذه النقاط :

أ-أنه أبرز الجديد الذي تنفرد به هذه الآية عن نظيراتها من

(١) سورة النساء آية رقم ١٤٦ .

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب ٢/ ٥٦٥ .

الآيات الأخرى ، وهو الاعتصام بالله ، واللجوء إلى حِماه ، حتى تستقر نفوسهم ، وتطمئن قلوبهم ، ويهجرون النفاق إلى غير رجعة.

ب-إن الله تعالى هو مقلب قلوب العباد وأمرهم بيده ، فلا غضاضة ولا مشاحة في نقل هؤلاء الذين توعدهم بأنهم في الدرك الأسفل من النار إلى مصاف المؤمنين العائدين إلى ربهم : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [1] .

ج-التهوين من شأن المنافقين المصرين على نفاقهم في المجتمع الإسلامي ، وأن أمرهم إلى بوار ، وكيدهم إلى ضلال ، وأموالهم التي ينفقونها للصد عن سبيل الله ستكون عليهم حسرة وندامة ، كما قال تعالى : ﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ [2] .

رابعاً قال الله تعالى : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ

(١) سورة يس آية رقم ٨٢.

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٣٦.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [1] .

قال ابن عاشور في تفسيره : (أي : من تاب من السارقين من بعد السرقة تاب الله عليه ، أي : قبلت توبته ، وليس في الآية ما يدل على إسقاط عقوبة السرقة عن السارق إن تاب قبل عقابه ؛ لأن ظاهر (تاب – وتاب الله عليه) أنه فيما بين العبد وبين ربه في جزاء الآخرة ، فقوله : ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ ترغيب لهؤلاء العصاة في التوبة ، وبشارة لهم . ولا دليل في الآية على إبطال حكم العقوبة في بعض الأحوال ، كما في آية المحاربين ، فلذلك قال جمهور العلماء : توبة السارق لا تسقط القطع ولو جاء تائباً قبل القدرة عليه . ويدل لصحة قولهم : إن النبي ﷺ قطع يد المخزومية. ولا شك أنها تائبة) [2] . وقال في ذلك لأسامة بن زيد : (أتشفع في حد من حدود الله . والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها) [3] .

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٩.

(٢) تفسير ابن عاشور ٦، ٧ : ١٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ٤/ ٢١٣، باب حدثنا أبو اليمان .. إلخ ، وفي الحدود ٨/ ٩ باب كراهة الشفاعة في الحد ، ومسلم في الحدود =

ثم ذكر ابن عاشور رواية عن عطاء : إن جاء السارق تائباً قبل القدرة عليه سقط عنه القطع ، ونقل هذا عن الشافعي : وهو من حمل المطلق على المقيد حملاً على حكم المحارب ، وهذا يشبه أن يكون من متحد السبب ، مختلف الحكم والتحقيق .

ثم رد ابن عاشور على هذه الرواية بقوله : (إن آية الحرابة ليست من المقيد بل هي حكم مستفاد استقلالاً ، وأن الحرابة والسرقة ليسا سبباً واحداً فليست المسألة من متحد السبب ولا من قبيل المطلق الذي قابله مقيد) [1] .

وما قاله العالم الجليل ابن عاشور قد سبقه إليه الإمام القرطبي عند تناوله لهذه الآية حيث قال : (إن الله تعالى لما ذكر حد المحارب قال : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [2] . وعطف

=

حديث ١٦٨٨ باب قطع السارق الشريف وغيره ، والترمذي في الحدود حديث ٢٥٤٧ باب الشفاعة في الحدود ٤ باب الحد يشفع فيه حديث ٤٣٧٣.

(١) تفسير ابن عاشور ٧/ ١٩٣.

(٢) سورة المائدة آية رقم ٣٤.

عليه حد السارق وقال : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِ ﴾ [١] .فلو كان مثله في الحكم ما غاير الحكم بينهما .

قال ابن العربي : ويا معشر الشافعية سبحان الله أين الدقائق الفقهية والحكم الشرعية التي تستنبطونها في غوامض المسائل؟ [٢] .. إلى أن قال (وإذا ثبت أن الحد لا يسقط بالتوبة ، فالتوبة مقبولة ، والقطع كفارة له) [٣] .

ونحن نميل إلى ما ذهب إليه ابن عاشور ، والإمام القرطبي ، وابن العربي في أن التوبة لا تسقط حد السرقة .

وإذا كان الأمر كذلك فما موقف صاحب الظلال من هذه الآية ؟

يقول : يفتح الله باب التوبة لمن يريد أن يتوب على أن يندم ويرجع ويكف ، ثم لا يقف عند هذه الحدود السلبية ، بل يعمل

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٩.

(٢) انظر : أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٦١٤.

(٣) تفسير ابن عاشور ٧/ ٣٧٣.

عملاً صالحاً ويأخذ في خير إيجابي . ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [١] .

فالظلم عمل شرير مفسد ، ولا يكفي أن يكف الظالم عن ظلمه ويقعد ، بل لابد أن يعوضه بعمل إيجابي خير مصلح . على أن الأمر في المنهج الرباني أعمق من هذا ، فالنفس الإنسانية لابد أن تتحرك ، فإذا هي كفت عن الشَّر والفساد ولم تتحرك للخير والصلاح بقي فيها فراغ وخواء قد يرتدان بها إلى الشر والفساد ، فأما حين تتحرك إلى الخير والصلاح فهي تأمن الارتداد إلى الشر والفساد ، بهذه الإيجابية وبهذا الامتلاء .. إن الذي يربي بهذا المنهج هو الله الذي خلق والذي يعلم ما خلق .

وعلى ذكر الجريمة والعقوبة ، وذكر التوبة والمغفرة ، يعقب السياق القرآني بالمبدأ الكلي الذي تقوم عليه شريعة الجزاء في الدنيا والآخرة ، فخالق هذا الكون ومالكه هو صاحب المشيئة العليا فيه، وصاحب السلطان الكلي في مصائره . هو الذي يقرره مصائره ومصائر من فيه ، كما أنه هو الذي يشرع للناس في حياتهم ، ثم

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٩.

يجزيهم على عملهم في دنياهم وآخرتهم[١] .

ونأخذ مما قاله ابن عاشور ، والقرطبي ، وسيد قطب ، من مضامين هذه الآية النقاط التالية :

أ-أن حكم الحرابة مباين لحكم السارق ، وأن توبة السارق لا تسقط عنه الحد .

ب-أن الندم توبة ، والتوبة ليست عملاً سبيلاً تقف عند الإقرار بالذنب ، والإنابة إلى الله ، والتوبة إليه ، بل يجب أن تتحول إلى عمل إيجابي يتمثل في عمل الصالحات ، والكف عن المحرمات والمساهمة الفعلية في إقامة شرع الله في الأرض .

ج-أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق لهذا الكون بكل ما فيه وعليه ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾[٢] . وما دام الأمر كذلك فهو المتصرف الحاكم لخلقه ﴿ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[٣] . فلا يتحركون إلا بأمره ، ولا يتوبون إلا بإذنه ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢/ ٨٨٦.

(٢) سورة فاطر آية رقم ٣.

(٣) سورة الشورى آية رقم ١٣.

تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا ﴾[١] . فَقَبل إرادته ومشيئته ما كانت لهم توبة وما وجد لهم عزم عليها .

خامساً : قال الله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢] .

وإذا كان الأمر كذلك فما هي الجهالة في مفهوم الشرع ، وعند علماء اللغة ؟ يقال : الجهل نقيض العلم والجمع جُهُل وجُهَّال ويقسمه بعضهم إلى ثلاثة أضرب :

الأول : خلو النفس من العلم. وقد جعل بعض المتكلمين الجهل معنى مقتضياً للأفعال الخارجة عن النظام ، كما جعل العلم معنى مقتضياً للأفعال الجارية على النظام .

الثاني : اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه .

الثالث : فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل ، سواء اعتقد

(١) سورة التوبة آية رقم ١١٨.

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٥٤.

فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً[١] .

والجهالة عند الإمام القرطبي تعم الكفر والمعاصي ، فكل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته . قال قتادة : أجمع أصحاب النبي ﷺ على أن كل معصية فهي بجهالة ، عمداً كانت أو جهلاً . وقاله ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد والسدي ، وروي عن الضحاك ومجاهد أنهما قالا : الجهالة هنا العمد . وقال عكرمة : أمور الدنيا كلها جهالة ، يريد الخاصة بها ، الخارجة عن طاعة الله . وهذا القول جار مع قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾[٢] .

وقال الزجاج : يعني قوله : ﴿ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية ، وقيل : ﴿ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ أي : لا يعلمون كنه العقوبة[٣] .

وقد رأى المفسرون في هذه الآية وضوحاً وبياناً ؛ فلم يقفوا

(١) راجع بصائر ذوي التمييز ٢/ ٤٠٦.
(٢) سورة محمد آية رقم ٣٦.
(٣) راجع تفسير القرطبي ٥/ ٩٢.

عندها كثيراً ، وتكاد آراؤهم التي ذكروها فيها متقاربة ومتحدة سواء ما ذكره الإمام ابن كثير[١] أو ما دبجته يراعة الألوسي[٢] ، أو ابن عاشور[٣] ، لهذا اكتفينا بما ذكره القرطبي عن الجهالة والجهل .

سادساً : قال الله تعالى:﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٤] . ولقد تناول هذه الآية العديد من الشراح والمفسرين . من ذلك أن ابن عطية بدأها بقوله : (ولما حذر الله تبارك وتعالى غضبه والطغيان في نعمه ، فتح باب الرجاء للتائبين ؛ لأن التوبة فرض على جميع الناس ؛ لقوله تعالى في سورة النور : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٥] .

والناس فيها مراتب : أما مواقع الذنوب وقدرته على ذلك باقية فتوبته الندم على ما مضى ، والإقلاع التام عن مثله في

(١) التفسير العظيم ٢/ ١٤٦.
(٢) تفسير الألوسي ٧/ ١٦٤.
(٣) تفسير ابن عاشور ٧٦/ ٢٥٩.
(٤) سورة النور آية رقم ٣١.
(٥) سورة النور آية رقم ٣١.

المستقبل. وأما الذي واقع الذنب ثم زالت قدرته على ذلك ، ممن شاخ أو بآفة فتوبته الندم واعتقاد الترك إن كانت له قدرة . وأما من لم يواقع ذنباً فتوبته العزم على ترك كل ذنب .

والتوبة من ذنب تصح مع الإقامة على غيره ، وهي توبة مقيدة ، وإذا تاب العبد ، ثم عاود الذنب بعينه بعد مدة ، فيحتمل عند حذاق أهل السنة ألا يعيد الله تعالى عليه الذنب الأول ؛ لأن التوبة قد كانت محضة ، ويحتمل أن يعيده لأنها توبة لم يُوَفَّ بها) [1] .

وخلاصة ما قاله ابن عطية في هذا الصدد يمكن إجماله فيما يأتي :

أ-أن التوبة فرض فرضه الله تعالى على جميع خلقه ويؤيده ما جاء في الحديث (كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) [2] .

ب-قسم التوبة بحسب الذنب وطبيعة مرتكب الذنب إلى

(١) راجع المحرر الوجيز لابن عطية ١٠/ ٦٨.

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ٤٢٥١-بسنده عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : وذكره . والترمذي في القيامة ٤٩، والدارمي في الرقاق ١٨، وأحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١٩٨.

عدة مراتب .

ج-عودة التائب إلى ارتكاب المعصية التي تاب عنها موكول أمره إلى خالقه تعالى ، إن شاء حاسبه على ما قدم وأخر ، وإن شاء تجاوز له عما كان قد تاب عنه .

هذه خلاصة مركزة لتخريجات ابن عطية في هذه الآية ، الذي عاش في القرن السادس الهجري ، فماذا تراه يقول صاحب الظلال الذي عاش في قرننا هذا وشاهد عن كثب سلوكيات النفس البشرية وهي تتحرر وتنسلخ من الكثير الذي نادت به الشرائع وأمر به خالق الإنسان .

يقول سيد قطب : (التوبة ليست كلمة تقال ، وإنما هي عزيمة في القلب يتحقق مدلولها بالإيمان والعمل الصالح ، ويتجلى أثرها في السلوك العملي في عالم الواقع ، فإذا وقعت التوبة ، وصح الإيمان، وصدَّقه العمل فهنا يأخذ الإنسان في الطريق على هدى من الإيمان ، وعلى ضمانة من العمل الصالح ، فالاهتداء هنا ثمرة ونتيجة للمحاولة والعمل) [1] .

(١) راجع في ظلال القرآن ٥/ ٤٨٩.

إن صاحب الظلال يترجم للتوبة ؛ فيرفض أن تكون كلمة تقال باللسان فقط ، وهو بهذا يتوافق مع ما قرره علماء الشرع من أن التوبة إسلام جديد .

إذن لابد من تحقق العمل الصالح بعد الدخول في التوبة ، العمل الذي لا تشوبه شائبة ، ولا يميل عن الشرع قيد أنملة . فإذا تم ذلك وأصبح العمل الصالح سلوكاً ومنهجاً للتائب ، كانت له المغفرة من ربه ، ووجده مع بالرعاية والعناية والكلاءة والحفظ في كل عمل يؤديه ، وعند كل همسة يهمس بها ، وعند كل خلجة يختلجها . قال الله تعالى ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (١) .

معنا بالرعاية التي لا تقف عند حد ، معنا بالتوفيق والسداد في أعمالنا وشئون حياتنا ، معنا بالمغفرة والتجاوز عن صغائر الذنوب ، كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ (٢) .

(١) سورة الحديد آية رقم ٤ .

(٢) سورة النجم آية رقم ٣٢ .

سابعاً : قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ (١) .

يقول الإمام الفخر الرازي : قال أصحابنا : إنه بعد التوبة لابد من مضي مدة عليه لظهور حسن الحال حتى تقبل شهادته ، وتعود ولايته ، ثم قدروا تلك المدة بسنة ، كما يضرب للعنين أجل سنة (٢) .

فقوله : ﴿ وأصلحوا ﴾ فيه دليل على أن التوبة وحدها لا تكفي ، بل لابد من ظهور أمارات الصلاح عليه ، فإن هذا الذنب مما يتعلق بحقوق العباد ، ولذلك شدد فيه .

ويقول صاحب الظلال : (قد اختلف الفقهاء في هذا الاستثناء ، هل يعود إلى العقوبة الأخيرة وحدها ؛ فيرفع عنه وصف الفسق ويظل مردود الشهادة ؟ أم أن شهادته تقبل كذلك بالتوبة ؟ فذهب الأئمة : مالك وأحمد والشافعي إلى أنه إذا تاب

(١) سورة النور آية رقم ٥ .

(٢) راجع تفسير الفخر الرازي ٢٣/ ١٦٣ وتفسير آيات الأحكام للصابوني ٢/ ٥٩ .

قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق . وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة . وقال الشعبي والضحاك : لا تقبل شهادته وإن تاب ، إلا أن يعترف على نفسه أنه قال البهتان فيما قذف ، فحينئذ تقبل شهادته . وهذا القول الأخير : هو الذي اختاره صاحب الظلال ؛ لأنه في رأيه إعلان براءة المقذوف باعتراف مباشر من القاذف ، وبذلك يمحى آخر أثر للقذف)[1] .

ونحن أيضاً نرى أن تنفيذ هذا الرأي ، فيه تطهير للمجتمع وتنظيم لسلوك أفراده ، وتصفية لقلوبهم ، وتربية لنفوسهم ؛ فلا يدفعها الهوى والغرض ، أو الحقد والشنآن على البغي على الآخرين ، وقذفهم بما لم يقترفوه ، دون دليل واضح أو بينة قائمة.

(١) راجع في ظلال القرآن ٦/ ٦٣، ٦٤.

خاتمة الكتاب

من نعم الله –سبحانه وتعالى– على عبده أن يبدأ عملاً ما ، ثم تحوطه رعاية الله وعنايته حتى يفرغ منه ، وأهم الأعمال في هذه الحياة ما كان خالصاً لله تعالى ، يبغي به رضى ربه ، وشكر نعمته عليه ، وأن يكون لمعة مضيئة على طريق الهداية لهؤلاء الذين تفرقت بهم السبل ، وانبهمت أمامهم المسالك ، فأهملوا شرع ربهم ، وكانوا للشيطان أولياء .

ولقد كان من توفيق الله لي أن هداني للكتابة عن التوبة ، التوبة الخالصة التي أوجبها الله على عباده ، منذ أن خلق البشرية ؛ حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وتبين لي من خلال إعداد هذا الكتاب أن التوبة من ألزم اللوازم لكل من خلق الله تعالى ، لا تنفك عنهم لحظة ، ولا يغفلوا عنها طرة ؛ امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] .

(١) سورة النور آية رقم ٣١.

فآدم أبو البشر يخدعه الشيطان ؛ فيستجيب لإغوائه ، ثم يتذكر معصيته لربه فيتوب إليه . قال تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [١] . والمستعرض لحياة الأنبياء والرسل – صلوات الله وسلامه عليهم– يجد أن التوبة كانت من ألزم اللوازم لهم . من ذلك أن موسى عليه السلام يسارع إلى التوبة من فعلته وتجرئه على ربه . قال تعالى على لسان موسى : ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢] . أي : أنا أول من آمن أنه لا ينظر إليك أحد إلا مات ، وقيل أنا أول من آمن أنه لا يراك أحد في الدنيا [٣] .

ويونس يجأر بالتوبة إلى خالقه ومولاه آيباً راجعاً متبتلاً في عبادة ربه .

قال تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ

(١) سورة البقرة آية رقم ٣٧.

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٤٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٣.

مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [١]

روى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال : (قال رسول الله ﷺ " دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له) [٢] .

ولقد قبل الله تعالى توبة الرسول ﷺ والمهاجرين لما حدث في غزوة العسرة . قال الله تعالى : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [٣] .

واختلف العلماء في هذه التوبة التي تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار فقال ابن عباس رضي الله عنه : كانت التوبة على النبي ﷺ لأجل إذنه للمنافقين في القعود ، دليله قوله تعالى : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٨٧ .

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٥٢٩ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ١١٧ .

﴿عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [1] وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه ، وقيل : توبة الله عليهم استنقاذهم من شدة العسر ، وقيل : خلاصهم من نكاية العدو [2] .

وإذا كان هذا حال التوبة مع الرسل والأنبياء وأتباعهم ، فنجد أن التاريخ وكتب السير تحفظ لنا الكثير من توبة الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقتنا هذا .

من ذلك توبة أبي لبابة التي يقول عنها : (لما أرسلت قريظة إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يرسلني إليهم – حين اشتد الحصار عليهم – دعاني رسول الله ﷺ وقال : (اذهب إلى حلفائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس) . قال : فدخلت عليهم وقد أشتد عليهم الحصار فهشوا إلي وقالوا : يا أبا لبابة ، نحن مواليك دون الناس جميعاً ، وسألوني ماذا يريد بهم الرسول ﷺ فأومأت إلى حلقي –يعني الذبح– قال : فندمت واسترجعت ، وذهبت إلى المسجد ، وربطت نفسي في سارية ، حتى مضى عليَّ سبعة أيام ، لا

(١) سورة التوبة آية رقم ٤٣ .

(٢) تفسير الماوردي ٢/ ١٧٣ .

أذوق طعاماً ولا شراباً ، حتى قبل الله توبتي وبشرت بذلك ، وجاء الرسول ﷺ وحل وثاقي من السارية ، فقلت له : (يا رسول الله إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله . قال : (يجزئك الثلث يا ابا لبابة) [1] .

ومن توبة الصحابة أيضاً ما فعله حنظلة الأسدي ، حيث رمى نفسه بالنفاق ، يقول : نافق حنظلة يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : (وما ذاك ؟) قال : يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار حتى كأنا نراهما رأي العين ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج ، وداعبنا الأولاد ، ونسينا كل شيء فقال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده : لو تداومون على ما تكونون عليه عندي من ذكر وعبادة لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة) يكررها ثلاث مرات [2] .

هكذا كان إحساس الصحابة الذين تربوا في رحاب الإسلام،

(١) راجع الاستيعاب ، ٤/ ١٦٧ . بتصرف .

(٢) صحيح مسلم ٣/ ٢١٠٦، ح ٢٧٥٠.

مراقبة تامة لربهم ، وتدقيق في كل عمل يقومون به ، وخوف من الله تعالى أن يعمل أحدهم عملاً ؛ فينزل في شأنه قرآن يعاتبه فيه ربه، أو يلومه على شيء صدر منه . كما قال تعالى لرسوله الكريم : ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [١] ومن قبل الصحابة ، وعن الأمم السابقة يحدثنا الرسول ﷺ عن توبة أصحاب الغار . قال رسول ﷺ : (بينما ثلاثة نفر يمشون إذ أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل فانحطت عليهم في غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم باب الغار . فقال بعضهم لبعض : ادعوا الله بصالح أعمالكم فدعوا الله – عز وجل – فقال أحدهم : اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران وامرأة وصبيان فكنت أرعى عليهم ، فإذا رحلت حلبت ، فبدأت بوالديّ أسقيهما قبل بنيّ ، وأنه نأى بي طلب الشجر[٢] فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما ، وأكره أن أبدأ بالصبية ، فجعلوا يتصايحون عند قدمي ، فلم أزل كذلك حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٣٧ .

(٢) أي : بعد طلب المرعى .

وجهك فأفرج[١] عنا فرجة ففرج الله – عز وجل – فرجة .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لي ابنة عم فأحببتها كأشد ما يحب الرجل النساء ، فطلبت إليها نفسها ، فأبت علي حتى أتيتها بمائة دينار ، فجئتها بها فلما قعدت بين رجليها قالت : يا عبد الله اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فقمت عنها ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا فرجة ، ففرج الله لهم فرجة .

وقال الآخر : اللهم إني استأجرت أجيراً ، فلما قضى عمله : قال أعطني حقي فعرضته عليه فتركه ورغب عنه ، فثمرته حتى اشتريت له بقراً ورعاءها فجاءني بعد حين فقال : اتق الله ولا تظلمني حقي ، فقلت إني استهزئ بك ، فخذ تلك البقر ورعاءها . فأخذها وذهب ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا ما بقي ففرجها الله عنهم) [٢]

(١) الفرجة : الفتحة ، وأفرج لنا : فافتح لنا .

(٢) راجع البخاري في كتاب الحرث والزراعة ، باب إذا زرع بمال قوم بغير إذنهم وكان في ذلك صلاح لهم ، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب ٢٧ قصة أصحاب الغار الثلاثة حديث رقم ٢٧٤٣ ، والنسائي في كتاب الرقائق ٦/ ٢٣٦ .

إن هؤلاء الثلاثة الذين أصابهم هذا الكرب الشديد عن طريق إطباق الغار عليهم ، يطلبون من الله تعالى أن يفرج عنهم كربهم ، ويزح عنهم بلائهم ، ويقدمون بين طلبتهم هذه صوالح أعمالهم ؛ لأنهم دائما يحرصون على مرضاة خالقهم ، عن طريق تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه ، وهم مع هذا كله يتوبون إليه عندما يقعون في الصغير والجليل عسى الله أن يتوب عليهم .

ولقد استجاب لدعائهم الخبير بأحوالهم والمطلع على سرائرهم ، والعليم بكل ذرة من ذرات كيانهم : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [1] .

وفي النهاية نقول لهؤلاء الشاردين والشاردات الهاربين إلى طريق الغواية ، الفارين إلى وسوسة الشيطان ، فروا إلى خالقكم وعودوا إلى بارئكم ؛ فالسماء مفتحة الأبواب لكل توبة نصوحة ، ورحمة الله واسعة تسع صغائر الذنوب وعظائمها . وعلينا جميعاً أن نستجيب إلى دعوة الله تعالى : ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ

(١) سورة الملك آية رقم ١٤ .

أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [1] .

هذا والله أعلم ، وهو الهادي إلى سواء الصراط ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٣ .

المصادر والمراجع

١- أحكام القرآن ، لأبي بكر بن العربي ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الفكر ، بيروت .
٢- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبدالبر، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، ط. أولى ، ١٤١٢هـ .
٣- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي . تحقيق محمد علي النجار . المكتبة العلمية – بيروت.
٤- التعريفات للجرجاني . مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٧ - القاهرة .
٥- تفسير آيات الأحكام للصابوني . الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ. مكتبة الغزالي . دمشق –سوريا .
٦- تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور . الدار التونسية ١٩٨٤م –تونس .
٧- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، علق حواشيه وقدم له عبدالوهاب عبداللطيف ، صححه وأشرف عليه. محمد الصديق ، مطبعة الفجالة الجديدة ، القاهرة ، ط١٩٨٤م .
٨- التفسير الكبير للفخر الرازي . دار التراث –القاهرة.

٩- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي . دار إحياء التراث العربي- بيروت .
١٠- جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري، حققه وعلق عليه محمود شاكر . دار المعارف بمصر .
١١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لمحمود الألوسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
١٢- سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، دار إحياء التراث العربي ١٣٩٥هـ ، بيروت .
١٣- سنن أبي داود ، تصوير تركيا (الكتب الستة) ١٤٠١هـ.
١٤- سنن الترمذي للإمام الترمذي ، دار الدعوة، ١٤٠١هـ ، تركيا .
١٥- سنن الدارمي ، تصوير تركيا (الكتب الستة) ١٤٠١هـ .
١٦- صحيح البخاري ، تصوير تركيا (الكتب الستة) ١٤٠١هـ .
١٧- صحيح الجامع الصغير وزيادته ، لمحمد ناصر الدين الألباني ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٩٨٨م .
١٨- صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، تصوير تركيا (الكتب الستة) ١٤٠١هـ .

١٩- طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين أبي نصر عبدالوهاب السبكي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط الثانية .
٢٠- العبر في خبر من غبر للذهبي ، تحقيق صلاح الدين المنجد، مصورة مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٨٤م .
٢١- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني، قرأ أصله تصحيحاً وتحقيقاً وأشرف على مقابلة نسخه المطبوعة والمخطوطة عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ، نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية – الرياض .
٢٢- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني . نشره محفوظ العلي –بيروت .
٢٣- في ظلال القرآن ، لسيد قطب ، الطبعة التاسعة- ١٤٠٠هـ . دار الشروق- بيروت .
٢٤- لسان العرب لابن منظور . دار صادر –بيروت .
٢٥- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية الأندلسي ، تحقيق وتعليق : عبدالله بن إبراهيم الأنصاري وآخر ، مؤسسة دار العلوم ، الدوحة ، قطر ، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ .

٢٦- مسند الإمام أحمد ، تصوير تركيا (الكتب الستة) ، ١٤٠١هـ.
٢٧- المغني لابن قدامة . تحقيق عبدالله التركي وعبدالفتاح الحلو. الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ . هجر للطباعة والنشر –القاهرة .
٢٨- النكت والعيون تفسير الماوردي ، لأبي الحسن الماوردي ، حققه : خضر محمد خضر ، راجعه : عبدالستار أبو غدة ، مطابع مقهوي ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ .
٢٩- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لأبي العباس بن خلكان، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
التوبة في اللغة	٩
التوبة في الاصطلاح	١٠
معاني التوبة في القرآن الكريم	١٥
الشروط الواجب توافرها للتوبة	١٩
منهج القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة للتوبة :	
١-التوبة واقترانها بالإيمان	٢٥
٢-التوبة واقترانها بالصلاة والزكاة	٣٧
٣-التوبة والعمل الصالح	٥٠
خاتمة الكتاب	٨١
المصادر والمراجع	٩٠
فهرس المحتويات	٩٤